الباب الثانى
مراكز الحركة والاستقطاب
فى المجتمع (من خلال النص)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

البنى السياسية والاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

١ - طبيعة القيادة السياسية: (من عصبية القبيلة إلى عصبية الدولة)

لقد أرجع ابن أبى الضياف كل الثورات السابقة التى عرفها القطر من الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى إلى:

- كثرة القبائل والعصائب المختلفة فى آرائها وأهوائها ووراء كل رأى وهو عصبية تمانع دونه. بالتالى يكثر الخروج ويصعب الانقياد "وقل إن تستحكم دولة فى الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب"(١) والمقصود بالعصبية هو تغلب أسرة أو قبيلة على الملك وذلك لوحدة النسب وقوة القرابة والولاء. هذا إلى جانب تبنى الدعوة الدينية كشرط لازم لإقامة الملك. إذن إقامة المركز السياسى وعلى الأرضية القبلية يفترض وجود "إيديولوجية سياسية - دينية" وذلك للاستبداد والمظاهرة. والعصبية قد تستفيد منها بعض القبائل أو الأسر بالتغلب على الملك لكن فى المقابل تكون سيفا مسلولا ضد القبائل المجاورة أو المنافسة وهكذا تبقى دولة العصبية غير مستقرة لأنه بضعف عصبيتها تسقط الدولة وهذا ما يفسر إصرار المعز الفاطمى عند مغادرته إفريقية إلى مصر توصية يوسف بن زيرى بن مناد "بعدم تولية أحد من أسرته أو أبنائه فى الملك"(٢).

والدولة الموحدية أرادت أن تتجاوز العصبيات التى شتت إفريقية حيث عملت على تجاوز النسب والعنصر والمذهب وذلك بالدعوة إلى التوحيد

---

١ - الإتحاف ١/ ١٢٩.

٢ - الإتحاف ١/ ٦٦.

والرجوع إلى الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح. من ذلك دعوة عبد المؤمن بن على[1] عرب بنى هلال إلى غزو الأندلس قائلا:

"أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل

وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر

وشدوا على الأعداء شدة صائل

بنى العم من عليا هلال بن عامر

وما جمعت من باسل وابن باسل"[2].

وإن توصل عبد المؤمن بن على إلى توحيد المغرب سنة الأخماس ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م محاولا جمع النسب = أهل الدار

توحيد القبائل = مجلس الخمسين.

الاستعداد بالعلماء = مجلس العشرة[3].

---

١ - عبد المؤمن بن على الكومى من أعمال تلمسان. كان ذكيا فصيحا راغبا فى العلم والقيادة تتلمذ على يد المهدى محمد بن تومرت المؤسس الروحى لدولة الموحدين. وكان يعظمه بمحضر من أصحابه ورشحه لخلافته فى حياته. فبايعه الموحدون من بعده (٥٥٨/ ١١٦٣). وقد توفى سنة (٥٥٨/ ١١٦٣) - انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - طبعة فاس بدون تاريخ ص ١٣٣.

٢ - انظر المقرى: نفح الطيب. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩ ص ١١٧.

٣ - انظر ابن أبى الزرع: روض القرطاس ١١٧.

obeikandi.com

فإنه وجد فى تونس معارضة شديدة سواء من سكان الحاضرة أو القبائل الهلالية وأعراب الجنوب. وقد صرح أنه "لابد من رجل يسد فى إفريقية مسد الخلافة ويقيم الملك"[١].

لكن الحفصيين ورثة الموحدين فى تونس لم يحلوا هذا المحل لا سيما المتأخرين منهم فقد قسموا البلاد إلى إمارات "وأشركوا رؤساء الأعراب فى السلطة"[٢]. فدب الاضطراب وعم الهرج. مما دفع السلطان المغربى أبو الحسن المرينى[٣] إلى التحرك إلى تونس لتمهيد العافية بالبلاد لكن إصلاحاته "آسفت الأعراب بقبض أيديهم عن التعدى واسترجاع إقطاعات بنى حفص.. فشنوا الغارات وحاصروه بالقيروان. فركب أسطوله ناجيا بنفسه إلى المغرب"[٤].

والدولة الحفصية إجمالا لم تستطع تجاوز النظام القبلى الموروث القائم على قوة النسب وتلاحم العشيرة. بل لعل نجاحها النسبى فى عهد الأمراء الأوائل يعود إلى التلاحم العائلى وقوة العصبية باعتبارها دولة قامت وتأسست من قبيلة هنتاتة ومؤازرة قبيلة مصمودة الموحدية لها وإن ازدهر الفكر والثقافة فى هذا العهد فذلك بفضل الثقافة المغربية والمشاركة الأندلسية بالإضافة إلى الرصيد الدينى والفقهى القيروانى. لكن المجتمع التونسى بقى مفككا بين

---

١ - الإتحاف ١/ ١٩٤.

٢ - الإتحاف ١/ ٢١٧.

٣ - هو عثمان بن أبى يوسف يعقوب عبد الحق المرينى استولى على الحاضرة سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) وبقى بالبلاد التونسية عشرة اشهر وبعض الأيام. كان قد سكن الدهماء وأمن الروع ومهد العافية ومحا آثار الحفصيين وبعثهم إلى المغرب. انظر الإتحاف ١/ ٢٢٣.

٤ - الإتحاف ١/ ٢٢٤.

القبـائل والحواضر أو بـين "طبقة أرسـتقراطيـة تتكون من الأشراف وشـيوخ الموجدين ورؤساء العرب وبين عروش وبوادى متناحرة أثرت كثيرا على عمران البلاد.

ترى هل استطاع الأتراك والحـسينيون تجاوز هذا الموروث الثـقافى وذلك بتوحيد المجتمع الريفى والمدنى ومناهضة الزعامات القبلية والانتماءات العصبية الضيـقة التى "جعلت مـعمور المملكة بلقـعا يتأنس به الوحـشى ويتوحش به الإنسى"؟[١].

لقد أقر الفـتح العثمانى بعد أن أطرد الأسبـان وأرجع البلاد إلى حظيرة الإسـلام نظاما سـيـاسيـا مـزدوج النفـوذ يشارك فـيـه الباشـا[٢] والداى[٣] والباى[٤]. غير أن تنظيـمات سنان باشا[٥] اتسمت بالتسـرع شأن النظم التى تفـرض أثر الحـروب مما جـعـل الدايات والبـايات يتنافـسـون علـى السلطة ويتصارعـون لكسب النفوذ وقد اعتبر الكاتـب هذا الترتيب "سدا لما انثلم من

---

١ - الإتحاف ١/ ٢٦

٢ - الباشا: هو ممثل الحضرة السلطانية فى الولاية.

٣ - الداى: مـعنى الداى فى التركـية الخـال. وأطلقت فى تونس على رئيس إحدى الـفرق الأربعين لعـساكر الانكشـارية. وقد أدركت بعض العجـائز تغنى بهذا فتـقول: عسـاكر ومـحلة داى يا سيـدى يابا "انظر ابن أبى دينار: المؤسس فى أخـبار إفـريقيـة وتونس - تونس ١٩٧٦ - ص ١٠٠.

٤ - الباى: يطلق عند العثمانيين على رؤساء القبائل وكبار الموظفين المدنيين. كلف فى تونس بقيادة المحلة المكلفة بجمع الضرائب.

٥ - سنان باشا: من القواد والعظام وكـبار الوزراء فى الدولة العثمانية. له آثار عظيـمة بكثير من البلدان الإسلامية التى دخلها أو ولى عليها مثل اليمن والشام ومكة والمدينة والقاهرة. حل بتونس سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٦م - توفى سنة ١٠٠٤هـ. انظر الإتحاف ٢/ ٢٣.

السيـاج وتألف للناس"[1] ومن بين هذه الألقاب لم يـطف على سطح الهرم الاجتماعى والسياسى إلا لقب "البايات".

ومن أبرز عوامل ترقى البايات فى سلم العـرش السياسى بدءا بالمراديين إلى الحسنيين نذكر:

- الدور العسكرى الاقتصادى:

كلف البای الفـتح العثمانى بقـيادة المحلة[2] العسكرية لجـمع الضرائب وتأليف شوادر العامة. حيث يجوب البـلاد مرتين فى السنة ترافقه أثناء سفره فرقة عسكرية لصيانة الأموال من جـهة ولفرض إرادة السلطة من جهة أخرى. فالباى من خلال هذا الدور أصبح يجمع بين صفتين هامتين فى الدولة: قيادة الجيش وإدارة مالية البلاد. فأسطا مراد مثلا الذى كلفه يوسف داى بخطة باى الأمحـال سنة (١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) لجمع الضرائب والأمـوال استطاع تأليف شوادر البلاد وتأمـين الطرقات وتشريد أهل البغى والفساد "وكـثرت فى أيامه المغانم"[3].

لقد أصبح باى تونس فى رتبة باشـا وأقره فى ذلك فرمان[4] من الباب العالى[5] كذلك الشأن لحـسين بن على التركى فـهو لم يكن عالما ولا فقـيها ولكنه كان كاهية فى جيش إبراهيم الشريف "وعلى كل حال قدمه حسبه ولم يؤخره نسبه"[6].

---

١ - الإتحاف ١/ ٣٠.

٢ - المحلة: عـساكـر نظامى يخرج مع الـباى لاسـتخـلاص الضرائب من الرعـايا بالأرياف وأقاصى البلاد.

٣ - الإتحاف ١/ ٣٩.

٤ - الفرمان: هو مرسوم سلطانى لإقرار شرعية أى عمل.

٥ - الباب العالى: مركز السلطة فى الدولة العثمانية.

٦ - الإتحاف ١/ ١٠٥.

إذن فالنسب فى تلك الفترة لم يعد شرطا من مقتضيات القيادة كما هو الشأن قبل الفتح العثمانى. قد تراجع شرط النسب والشرف الرفيع لفائدة الحسب.

"وما ينفع النسب الهاشمى *** إذا كانت النفس فى باهلة"[1].

فحسين بن على اصطفاه سكان الحاضرة أميرا لهم وذلك لبلائه وشجاعته الحربية مع أنه "لم يطلبها"[2] أى الإمارة.

- الدور الاجتماعى - السياسى:

المقصود بذلك هو تواصل باى الأمحال بمختلف القبائل النائية بأقاصى البلاد وتوطيد العلاقة مع أعيانها ومشايخها وحتى شيوخ الزوايا والأولياء الصالحين. وأكثر من ذلك تقوية العلاقة بالمصاهرة "فحسين بن على تزوج امرأة من الشنانفة"[3]. وهذا الاقتراب ربما أحدث شرخا فى مراكز القوى بالبلاد فى العهد الحسينى حيث اقترب البايات من أعيان البلاد واستغنوا شيئا ما عن العسكر التركى. أما الدور السياسى الذى شجع البايات على الترقى والمحافظة على العرش هو موقف الباب العالى. "إذ أنه لم يتجاوز التأييد والتفويض لما تقتضيه مصالح الولاية"[4].

ولم تخرج القيادة السياسية فى عهد الأتراك والحسنيين من أمراء العسكر وقادة الجند حيث أصبح عرش المملكة دولة بينهم وبين أبنائهم وأحفادهم.

---

١ - نفس المرجع

٢ - الإتحاف ٢/ ١٠٧.

٣ - الإتحاف ٢/ ١٠٦.

٤ - محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. المطبعة الإسلامية (١٨٨٤) ١/ ١٣٣.

فحسين بن علـى مثلا لما امتطى صهوة الولاية ودانت له البـلاد استبد بالحكم عن ابن أخيه وجـعل الولاية بعده لابنه محمد بـاى رغم أن الشيخ زيتونة[1] أمـره بالتأنـى والتثـبـيت فى هذه المسـألة وقال له "الآن خـفت عليك حـيث اعتمدت على حولك وقوتك"[2].

أجابه حـسين باى قـائلا: "لا تخشى فـإن إفريقـية كسـجادة طويتـها وجلست عليها"[3].

فالملك الحـسينى نحى منحى العـصبـية واعتـمد على الشـوكة الظاهرة والغلبة فى مجتمع فوض له إمارة البلاد تجنبا للفتن وإراقة الدماء.

إذن نلاحظ معيار الأهلـية والكفاءة العلمية فى انتداب الأمـير فسقطت العلاقة المتلازمة بين العلم والمسئولية واستبدلت بثنائية القوة والسلطان. فمعيار الحراك والتـرقى فى العهد الأغلـبى مثلا كـان مؤسسا عـلى قيمـة العلم قبل القوة. فـإبراهيم بن الأغلب "كان فقـيها أديبا خطيـبا"[3]. كذلك أسد بن الفرات صـاحب المدونة الأسيـدية وفاتح صقلـية سنة (٢١٢/ ٨٢٧) لما ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة الجيش بعد القـضاء صرح قائلا: "والله ما ولى أب ولا جد ولاية قط... وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام"[4].

إذن على أساس علاقات القرابة والدم والشوكة الظاهرة ستحدد المشاركة

---

١ - محـمد زيتونة: من علمـاء المنستيـر عاش بين سنتى (١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م) (١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م).

٢ - الإتحاف ٢/ ١٣.

٣ - الإتحاف ١/ ١٣١.

٤ - الإتحاف ١/ ١٣٤.

فى العهد الحسينى وستحل محل العصبيات المحلية الخائرة والمنحلة العصبية المملوكية سواء فى الوزارة أو العمالة أو الجيش.

فمظاهر العصبية فى خطة الوزارة تتجلى من خلال حصر الانتداب داخل القضاء الأناضولى والتركى واستبعاد المشاركة المحلية. فالوزير داخل النظام السياسى الحسينى جىء به غلاما من أرض البلقان أو اليونان إلى قصور البايات والأمراء. وبفضل مواهبه العسكرية والفكرية يجد الطريق أمامه مفتوحا نحو الترقى فى الجهاز العسكرى والإدارى، وقد سيطر الوزراء المماليك على أغلب المناصب فى البلاد بل هناك من احتكرها عقودا من الزمن مثل وزارة مصطفى خزندار التى دامت ستا وثلاثين سنة. وشكلوا بذلك طبقة سياسية عسكرية لها نفوذ كبير فى البلاد، ولكن هذا الزحف المملوكى على الوظائف الوزارية ظل خاضعا إلى السيطرة العليا للباى باعتبارهم "من صنائعه ومواليه"[1]. أما المنحدر الاجتماعى للعسكر الحسينى فى عمومه فهو أناضولى شرقى يعود انبعاثه إلى الفتح العثمانى. ومعظم قواد العسكر من المماليك الذين تربوا فى قصور البايات. ولكن وإن وقع التقليص النسبى من صلاحيات هذا العسكر بالاعتماد على قوة الأهالى فإنهم يعتبرون الأيالة "بلاد السلطان العثمانى وهم عسكره ورعيته"[2]. وباستعمالهم فى حماية الموسم الفلاحى والإشراف على إدارة بعض الأحباس بدأ العسكر التركى يخرج من عزلته الاجتماعية ويستغنى عن فكرة التملك والحيازة.

---

١ - الإتحاف ١/ ٢٧.

٢ - الإتحاف ١/ ١٥٢.

وأضحى شعاره "الذى يصبح على الكرسى هو أميرنا"[١]. وبالنسبة لسلطة العمال فإنها تتوزع بين المدن والأقاليم الكبرى من الأرياف ويمثلون الامتداد السياسى لنفوذ البايات داخل البلاد وفى عمق المجتمع القروى والريفى. ويذهب الدكتور عبد الباقى الهرماسى "إلى أن انبثاق فئة القواد أو العمال يعود إلى إسقاط سيادة القبائل المالكة"[٢].

وبما أن اختراق سيادة القبيلة ليس سهلا فقد "أسند حسين بن على هذه الخطة بمشارطة مالية"[٣]. وذلك لإضخاع القبائل القروية وتسهيل أمر الجباية. أما المنحدر الاجتماعى لأغلبية العمال فى القرن التاسع عشر يعود إلى أصول تركية ومملوكية. فأحمد باى[٤] مثلا "أولى أبا العباس أحمد زروق وهو من مماليك عمه عمل الجريد"[٥]. كما أولى على عرش أولاد عون حانبة من عجم الترك"[٦].

فالسلطة الحسينية فى القرن التاسع عشر كانت تخشى من المشاركة

---

١ - الإتحاف ٣/ ١٢٩.

2 - Abdel Beki HERMASSI: histoireel an Magreb. Edition maison intropo francais, Paris 1975 p40

٣ - الإتحاف ٣/ ٢١.

٤ - أحمد باى: هو الباى الحسينى التاسع. تولى الحكم بين سنتى (١٨٣٧/ ١٨٥٥) وقد ولد سنة (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م) بالحاضرة. ولى بعض الأعمال إلى أن بويع بعد وفاة والده. زار أوروبا سنة (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٧م) وقد أدخل أساليب جديدة على إدارة الجيش وتعلمه إلى جانب بعض المبادرات الأخرى، انظر خير الدين الزركلى - قاموس راجم الأعلام دار العلم الملايين - لبنان ١٩٧٩ ١/ ٢٥٨.

٥ - الإتحاف ٤/ ١٣٠

٦ - الإتحاف ٣/ ١٠٩.

السياسية لأبناء البلاد وخاصة فى الجهة الغربية والجنوب حيث توجد هيمنة واضحة لبعض القبائل الكبرى.

ولعل الاختيار المملوكى للإشراف على الآفاق هو الذى خلق توترا مستمرا بين مجتمع الريف والدولة. وقد أشار أحمد بن أبى الضياف إلى إرادة الاحتكار السياسى فى أعلى الهرم حيث يقول عن أحد البايات: "ومن أخباره أنه لا يولى من القبيلة عاملا منها لأنه يؤثر قرابته وتتقوى بهم شيعته من المشايخ والهواديك[1]"[2].

فالقيادة السياسية من أعلى الهرم إلى أدناه لم تخضع معيارية الحراك السياسى إلى الشروط العلمية والثقافية كما أنها لم تفتح مجال المشاركة فى المناصب الإدارية لأبناء البلاد ولادة إلا لما. وهذا يدل على أن القيادة تحولت من العصبية القبلية إلى عصبية مملوكية منفصلة عن المجتمع. وبالتالى لم تتوصل هذه السيطرة التركية والمملوكية إلى وضع مشروع تعاقد سياسى يتجاوز معيار النسب والعنصر إلى الكفاءة العلمية والمصلحة العامة وذلك بتداول المسئوليات بين أبناء البلاد ولادة وولاء دون استثناء أو إقصاء. وثورة العربان فى القرن التاسع عشر برهنت على فشل التوجه السياسى عندما أعلنت عن ضرورة المشاركة الوطنية وعزل المماليك: "إننا نريد قيادة من أفراد

---

١ - هيدوك: وهى كلمة مجرية (HAYDUK) وصارت بالتركية (HAYDUT) استعملت فى المجر والنمسا وبعض بلدان البلقان فى أوقات مختلفة بمعنى اللص والصعلوك والراعى والخادم والشاويش. ثم أطلقت على بعض متطوعة البلقان الذين قاوموا الحكم التركى. شاع استعمالها عند الأتراك فى تونس بمعنى عريف - انظر الإتحاف ٣/ ٢١.

٢ - الإتحاف ٣/ ١١٠.

القبـيلة وتختارهم القبـيلة من أصل تونسى عربا مثلـنا ساكنين بيننا[1] فكيف نظر الكاتب إلى أهل التناقض بين الـقيادة السـياسيـة والحسـينية وبين ثقـافة المجتمع المحلى وخصوصياته؟

***

١ - الإتحاف ٥/ ١٤٨.

obeikandl.com

٢ - مستويات الحراك السياسى:

أ - انفتاح الحراك:

المقصود بانفتاح الحراك هو التواصل الممكن بين المجتمع والدولة لا على أساس الإخضاع والإكراه واعتبارات النسب والعنصر بل على أساس تبادل الخدمات وانتظام المصالح. فتكون بذلك الدولة طالبة ومطلوبة وتكون الرعية طائعة منقادة. وحسب الكاتب فإن مستوى هذا الحراك السياسى المشروع يخضع إلى الشروط التالية:

*** المنبت:**

المقصود بالمنبت هو الانتماء الترابى الوطنى للحاكم فيخرج من هذا التحديد الانتماء الدينى. وعلى هذا الأساس يفرق ابن أبى الضياف بين داى فى سلوكه غلظة وفى انتمائه تعصب. وبين داى رؤوف القلب مثل الداى أبى العباس أحمد الباوندى الذى امتاز عن غيره ممن سبقوه "لأنه كان ممتزجا بأهل البلاد"(١).

فالأهلية السياسية من منظور الكاتب تتوقف على التحام الحاكم بالرعية ومعنى هذا الالتحام هو معرفة عوائد الناس وطباعهم ومنازل أشرافهم لا سيما وأن أهل إفريقية حسب رأيه "تسكن إلى واحد منهم نشأ فى أرضهم ولو من الموالى"(٢). وبين أن هذا الالتحام الترابى إنما يقتضيه.

- طباع القوم وعوائدهم إذ لا يعقل قيادة الرعية بغير أخلاقهم.

---

١ - الأتحاف ٣/ ١٧٧.

٢ - الإتحاف ١/ ١٣٠.

obeikandl.com

- الشـرع: لأن الله مـن على المؤمنين برسـل منهم: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[1].

ويترتب على التخلق بعوائد الرعية النتائج التالية:

- عدم الإيثار بأعمال المملكة غيرهم.
- استقرار الملك.
- حب الوطن.
- يقل الهرج وترسيخ الدولة[2].

وضرب الكاتب مثلا فى ذلك أن عبد الرحمن الداخل[3] (صقر قريش) لما خرج فارا بنفسه من الشام إلى الأندلس. فإنه رغم نجاته من القتل وتحصين ملكه بالأندلس آله كثيرا فراق وطنه لأن "ابن الوطن همه وطنه"[4].

فالانتماء الوطنى أو القطرى لا يعنى عزل الأجناس الأخرى الغربية عن الوطن إنما مـعنى المنبت هو التـحـبب إلى أهل الإيالة والامـتزاج بهم وعـدم الاستكبار عنهم كما فعل بعض البايات والمماليك الذين ارتقوا بعصبيتهم عن

---

١ - سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٢ - الإتحاف ١/ ١٣٠.

٣ - يقول عبد الرحمن الداخل الأموى معبرا عن شوقه إلى وطنه:

إن جـسمى كما علـمت بأرض وفـؤادى ومـالـكـه بأرض
فرق البيـن بينـنا فـافترقـنا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قـضى الله بالفـراق علينـا فعسـى باجتـماعنا سوف يقضى

انظر الإتحاف ١/ ١٣٨.

٤ - نفس المرجع.

عوائد المجتمع وجعلوا الملك وشؤون الدولة دولة فيما بينهم مع أن المصلحة والواقع يقتضيان تشريك سكان الإيالة فى إدارة بلادهم.

فالانتماء الترابى حسب الكاتب لا يعنى تحديدا جغرافيا لأن المصلحة الاجتماعية لا تعنى تحديدا ترابيا ولا تملصا عن نفوذ الخلافة العثمانية: "فالإيالة مملكة من المماليك العثمانية"(١). لكن التناقض حسب الكاتب لا يكمن بين المستوى القطرى والإسلامى إنما يكمن فى التعارض القائم بين طبيعة السلوك السياسى وخصوصية منبت المجتمع المحلى.

فالمجتمع التونسى قبل شرعية التمثيل المرادى والحسينى ولم يقف عند انتمائهما الجغرافى ومنحدرهما الاجتماعى. وقد بين الكاتب أن مسائل السياسة والقيادة هى أمور تنافسية حسب الجهد والطموح والكفاءة، من ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما أنكر عليه العرب تشريك رجلين من الموالى فى القضاء واقتصر على واحد من العرب قال: "ما ذنبى إذا كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون"(٢).

وكمثال آخر على حب الرعية أو بغضها لحكامها بين الكاتب تحيز أهل تونس لمحمد باى المرادى ضد عمه محمد الحفصى لما نازعه الملك وذلك "لبغضهم له وحبهم فى ابن أخيه"(٣).

وفى إطار الالتحام ورفض إمارة الغريب انحاز أعراب البلاد إلى الحسن

---

١ - الإتحاف ١/ ٤١.

٢ - الإتحاف ١/ ٢٩.

٣ - الإتحاف ١/ ٤٠.

الحفصى ضد سنان باشا وذلك لأنهم "يدينون لسلطانهم النابت فى تربتهم الملتحم فى جلدتهم المتكلم بلغتهم"(١).

*** الوازع:**

لقد أرجع الكاتب خروج الملك من أيدى الحفصيين إلى ضعف الفضائل السياسية حيث "لم يكن للمتأخرين منهم ما يردع أغراضهم النفسانية من وازع شرعى أو سياسى"(٢).

والمقصود بالوازع الشرعى هو قانون الملك الإسلامى المتمثل فى القرآن العظيم وأقوال الرسول ﷺ ثم استنباط الأيمة المجتهدين ورثة الأنبياء وحفظ مقاصد الشريعة التى تقوم على المصلحة. أما القانون فهو من الخصال الحميدة "التى يقتضيها الوقت والحال من السياسة"(٣).

ولم يفرق الكاتب بين الوازع الشرعى والوازع العقلى لأن مدارهما واحد وهو العدل "وفروع القانون أما شرعية بالنص أو مما يشهد الشرع لأصلها بالاعتبار"(٤).

لقد أكد ابن أبى الضياف كثيرا على ضرورة اعتماد هذا الخلق فى السياسة وذلك لأن النظام السياسى فى العهد الحسينى لم يشهد تقنينا للرأى المخالف ولم يسمح بذلك لأن دولة البايات كانت تفتقد موضوعيا لآليات ممارسة الفعل السياسى المعقلن بل كانت الممارسة تستند إلى ما جرت به العادة أو ما جرى عليه السلف أو "هكذا ظهر لى"(٥).

---

١ - الإتحاف ١/ ٢٤

٢ - الإتحاف ٢/ ٢٩.

٣ - الإتحاف ١/ ٤٥.

٤ - الإتحاف ١/ ٥٩.

٥ - الإتحاف ١/ ٤٦.

فالفعل السياسى لم يخرج عن دائرة الشخصية والأحادية - فالباى هو الأمير وهو الآغا[1] وهو القاضى وهو الجابى. . . "وهو الأعلم بسياسة الرعية"[2].

*** السلطان طالب ومطلوب:**

الشرط الثالث إلى جانب الانتماء والوازع هو مسألة العلاقة بين الدولة والمجتمع. إذ أن الممالك لا تكون على نهج استقامة "إلا إذا كانت طالبة ومطلوبة"[3].

فمن مطالب الدولة الضرورية مثلا:

- المال لتعمير البلاد وتوفير المرافق.
- الجند لحماية الوطن والدفاع عن المجتمع والدين.

أما طلب الرعية فيتمحور حول جملة من الحقوق الضرورية مقابل الواجب المقدم للدولة. لكن تبادل الخدمات بين المجتمع التونسى والدولة الحسينية فى القرن التاسع لم يكن متمثلا وذلك لغياب دولة العموم التى يتماثل فيها الحق والواجب وتبادل المنافع بين الرعية والسلطان.

ب - انغلاق الحراك:

ينعدم الحراك السياسى بين السلطان والرعية وذلك عندما تكون العلاقة بينهما مؤسسة على اعتبارات الدم والعصبية والقوة حيث ينعدم التواصل ويغيب الاندماج وتبدأ المغالبة والمواجهة.

---

١ - الآغا: يعنى ضابط سامى يشرف على قيادة الفرق العسكرية.

٢ - الإتحاف ٥/ ١٢٨.

٣ - الإتحاف ١/ ٨٥.

obeikandi.com

ومن أسباب هذا الفصام المـعلن بين الدولة والمجتمع التى ذكرها الكاتب نذكر:

*** الحكم المطلق:**

وهو مظهر من مظاهر الاسـتبداد السياسى الذى يمـارسه السلطان على رعيته معتبر إياه سياية حازمة ومعقولة ضد "أجلاف الأعراب والبوادى" وضد كل خـارج عن طوعه. وفكـر الإطلاق لا يستـجـيب للنصيـحـة والمشاركـة ويعتبرها خـيانة باعتباره هو رمز العـصمة السياسيـة والمركزية الإدارية. وعامة الناس فى ظل الحكم المطلق تجدهم "كالبهائم" المنقادة يساقون إلى الموت وهم ينظرون. "إذا أسرف بأمـوالهم يقولون عنه كريم وإذا قتل ولم يمـثل يقولون عنه رحيم"(١).

والملك المطلق حسب الكاتب لا يستبيحه.

- الشرع: "لأنه تصرف فى عباد الله وبلاده بالهوى"(٢).
- العقل: "لأنه تغلب وقهر"(٣).

ومن نتائج سياسة الإطلاق حسب رأيه:

- "وهن المسلمين ونقصان بلدانهم"(٤).
- "كثرة الثوار والخارجين"(٥).

---

١ - عبد الرحمن الكواكبى: طبـائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. النسخـة القديمة - المكتبة الشرقية مصر (د. ت) ص ٣٣.

٢ - الإتحاف ١/ ١٩.

٣ - نفس المرجع.

٤ - المصدر السابق.

٥ - الإتحاف ١/ ٢٠.

- "التخلق بذل المغارم والقهر"[١].

- انتفاء الانتماء وحب الوطن والانسلاخ عن أخلاق الأحرار.

فالحكم المطلق حسب الكاتب هو مصدر كل الأمراض الاجتماعية التى تستهدف الفرد والمجتمع والوطن. ففى ظل دولة الإطلاق تتأزم العلاقات وذلك لتنافر القلوب وتباين المصالح. حيث يلغى الحراك تماما بين الدولة والمجتمع. لا سيما ومقومات الحضور الاجتماعى والسياسى مفقودة.

والفرد عاجز مقهور لا يحس بانتمائه لهذا الوطن. "حتى صار بعض أهل الجهات من المسلمين عبيد جباية ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ومنبت آبائهم وأجدادهم إلا إعطاء الدرهم والدينار"[٢].

*** التعدى والانقباض من الكسب:**

المقصود بالتعدى هو نهب أموال الرعية بوجه لا يقتضيه العقل ولا الشرع فتنقبض الرعية عن الكسب ما دام الجهد مغبونا والتحصيل منهوبا من قبل السلطان وأعوانه حتى أن بعض المماليك من جهلة الترك يقولون: "العربى خذ ماله واقطع رأسه"[٣]. وهذا ما يفسر رفض العربان فى ثورة ١٨٦٤ تسديد الجبايات المجحفة الذاهبة بأعمالهم وأموالهم وكذلك عدول بوادى الخيام "عن بناء المساكن وغرس الأشجار ومجاورة المياه. . . . ما ذلك إلا من عدم الأمن وتوقع العدوان"[٤] وفى هذا الإطار يقول ابن أبى الضياف معبرا عن هموم العربان والبوادى:

"أوتيت ملكا لترعانا فتأكلنا *** أكل الذئاب! أذئب أنت أم راعى؟"[٥].

١ - الإتحاف ١/ ١١.

٢ - الإتحاف ١/ ٢٦.

٣ - الإتحاف ١/ ١٢٩.

٤ - الإتحاف ١/ ٢٥.

٥ - الإتحاف ١/ ٢٠.

٣ - "استراتيجية" الدولة إزاء الرعية:

إن طبيعة الحراك السياسى فى القرن التاسع عشر بين الدولة والمجتمع بقيت رهينة النسيج الاجتماعى التونسى آنذاك الذى يتشكل من مداشر وقرى وقبائل وحواضر متباينة فى انتظامها وعلاقاتها وذلك لقلة اندماج هذه الوحدات فيما بينها حسب العادة والعرف واختلاط وسائل الإنتاج. كذلك بقى الحراك خاضعا كما بين ابن أبى الضياف حسب خطاب السلطة وطرق تعاملها فى سياسة الرعية من قبائل ومدن.

وقد فرض هذا التباين الاجتماعى والسياسى اتباع "استراتيجية" لقيادة المجتمع تتراوح بين سياسة الاحتواء من جهة وسياسة المواجهة من جهة أخرى. وقد استشعرت الدولة صعوبة التواصل بينها وبين خلايا المجتمع آنذاك وهذا ما يعكس حالة التوتر الدائم بين الجماعة والدولة والذى تحول سنة ١٨٦٤ إلى ثورة عارمة كادت تستأصل النظام الباياتى من جذوره. لذلك قال أحمد باى عندما عرض عليه أمر جبانى يتعلق بالرعية "لا أعادى إفريقية فى يوم واحد لأن كل من تطلبه يسير بطبعه عدوا"(١).

أ - سياسة الاحتواء:

تتمثل مظاهر الاحتواء فى التقرب من زعامات المجتمع المحلى والإحسان إليهم ومحاولة اعتناق ثقافة الرعية والتخلق بعاداتها وأعرافها حسنة كانت أو سيئة وذلك لإضفاء الشرعية الثقافية والدينية على الملك الحسينى. فحسين بن على مؤسس الدولة "كان عالما بتنزيل السياسة فى منازلها محببا إلى الناس معظما للعلماء والصالحين"(٢).

١ - الإتحاف ٤/ ١٩٣.

٢ - الإتحاف ٢/ ١١٧.

ولعل من أسباب التخلق بأخلاق الرعية والتجذر فى ثقافة المجتمع المحلى يعود إلى محاولة كسب ولأنها حسب الاعتبارات الضرورية القائمة آنذاك:

*** الاعتبار الاجتماعى والاقتصادى:**

ينحدر مؤسس الدولة حسين بن على من جزيرة كندة[١] اليونانية. ينتمى إلى سكان الإيالة بالولاء لأنه يعد من الوالى الذين ترقت بهم الخدمة العسكرية إلى الخطط الرفيعة. وقبل إمارته للبلاد وأثناء عمله بالكاف وحراسة قلعتها "كان قد تزوج امرأة من عرش شارن وامرأة من عرش الشنانفة"[٢].

والمصاهرة واختيار العائلات من العروش من قبل الأمراء المماليك دليل على إرادة تحصين نسبهم وتأكيد انتمائهم الاجتماعى لهذا الوطن. وقد اعترف أحمد باى بضعف نسبه عندما قال له أحد المترلفين:

"إن داركم أقدم دار بتونس.

فقال له: إن دار الرصاع ودار القلشانى... وبيوت بعض الأكابر من العربان أقدم من دارنا[٣] وقد أكد أحمد بن أبى الضياف على إرادة الامتزاج بسكان الإيالة من قبل أحمد باى الذى حاول تجنب مبدأ عصبية النسب وعمل "على مصاهرة أبا عبد الله محمد المرابط الغريانى من أعيان أكابر القيروان على أخته[٤].

---

١ - كندة: Candic هى مدينة بجزيرة "كريت" يسمون بها الجزيرة كلها.

٢ - الإتحاف ٢/ ١٠٦.

٣ - الإتحاف ٤/ ١٨٨.

٤ - الإتحاف ٤/ ١٨٩.

بل أكثر من ذلك أمر شيخ الإسلام بإنشاء خطبة لهذا العقد وذلك للتنويه بسياسته الاجتماعية المنفتحة على المجتمع. وهذا الجمع بين عقيدة بيت الرئاسة بالنسب العريق فى البلاد يعكس محاولة السلطة الحاكمة تأصيل ذاتها فى كيان المجتمع وتراثه.

ومن مظاهر الامتزاج بتاريخ المجتمع وتراثه إلى جانب تقوية النسب تسعى بعض البايات إلى تقوية أواصرهم الاجتماعية بأهل المدن والحواضر وذلك للاستفادة من ثراء "الأرستقراطية" المدينية وكسب ولائهم، مثل محاولة حسين بن على التعرف على ثورة بعض الأغنياء ومراقبتهم وذلك "لاختيار حال البلاد ومعرفة الغنى من الفقير[١].

وضمن الاعتبار الاقتصادى فقد تم انتداب أمناء المال من أبناء الأعيان الذين تدعم نفوذهم داخل الهيكل السياسى والاجتماعى كآل بن عياد وآل الجلولى حتى أصبح الواحد منهم النصوح الأوفى والمقرب زلفى، لكن هذه العلاقة المنفعية بين الدولة وأثرياء الأعيان من البيوتات التونسية وصلت بعد منتصف القرن التاسع عشر إلى القطيعة والاختلاف حيث أفلست "طبقة" الأعيان من القياد واللزامة كآل الجلولى وآل بن عياد وعاد الدور من جديد بعد تجربة العنصر المحلى إلى العنصر اليهودى. كذلك من مظاهر الاحتواء الاقتصادى تحجير على باشا[٢] تعاطى الفلاحة من قبل أبنائه ووزرائه معتبرا إياها "معاش الضعفاء والعامة"[٣] وقد استحسن ابن أبى الضياف هذه السياسة واعتبرها من أخلاق الرئاسة وعلو الهمة وعزة النفس.

---

١ - الإتحاف ٢/ ١١٨.

٢ - ولاية على باشا بدأت بعد مقتل عمه حسين بن على وكانت سنة (١١٤٨/ ١٧٣٥).

٣ - الإتحاف ٢/ ١٥٠.

*** الاعتبار السياسى والثقافى:**

لقد عمل حسين بن على على تقليص النفوذ التركى داخل البلاد وذلك "لما فى نفوس القوم من الميل إلى تقلب الأمر بينهم"[١] فالدايات الأتراك يعتبرون أنفسهم أحق بالتقدم منه لاسيما وهم من جنس السلطان العثمانى ولهم الفضل فى فتح البلاد وطرد الأسبان. لكن ابن أب يالضياف يرى "أن الترك يريدون الأمر دولة بينهم وطريق الوصول إليه الإقدام والعصبية"[٢].

فالكاتب يعتبر الحسنيين أقرب إلى طباع الأهالى وأحسن خلطة من الأتراك وذلك لإرادة الامتزاج والتخلق بعادات المحليين وعدم الترفع عنهم. وعبر الحسينيون بدورهم عن إرادة الاستقلال عن نفوذ الباب العلى واعتمدوا فى ذلك على سكان الإيالة حتى "أن رأى الملا من أهل تونس بالجامع الأعظم أجمع على عدم قبول محمد الحفصى"[٣] الذى أرسله السلطان محمد خان بخطة باشا تونس فى عهد محمد باى المرادى سنة (١٠٨٧/ ١٦٧٦). وتطور أمر استقلال بالإيالة عن الباب العالى مع أحمد باشا الذى اعتبر سفره إلى فرنسا أمر تقتضيه المصلحة. وتأكيدا على التوجه القطرى للبايات الحسينيين خرج حمودة باشا[٤] إلى طرابلس واسترجعها من على برغل "الذى حصل على عهد الولاية من السلطان سليم خان"[٥].

وبالنسبة للسياسة الثقافية فقد عمل أغلب البايات على بناء المساجد والزوايا وتوقيف الأحباس وهى سنة اتبعها حكام الدولة خلفا عن سلف.

---

١ - ولاية على باشا بدأت بعد مقتل عمه حسين بن على وكانت سنة (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م).
٢ - الإتحاف ٢/ ١٥٠.
٣ - الإتحاف ٢/ ١١١.
٤ - الإتحاف ٢/ ٦١.
٥ - الإتحاف ١/ ٤٠.

وقد اعتبر ابن أبى الضياف مـآثر حسين بن على العلمية "تجديدا لآثار يوسف داى وحـموده باشـا المرادى"[1]. هذا إلى جـانب تمظهـر حكام الدولة برداء العلم والدين.

فحموده باشا "كان ولوعا بالنظر فى مقدمة ابن خلدون"[2] وكان على باشا "يسامـر أهل المجلس الشرعى"[3]. أما حسين بن على فـقد نهى ابنته عن ارتداد حزام مثقل بالفضـة ومزق الحزام وقال لها: "إنك من بنات تونس فلا تخرجى عن عادة إخوتك من بنات البلاد"[4].

ومن مظاهر المشـاركة الثـقافـية التـسوية بين المذهبـين المالكى والحنفى والانتداب المحلى لكتبة الإنشاء بالديوان الملكى لا سيما وابن أبى الضياف أول من كتب للدولة العلمية بالقلم العربى.

ب - حركة المواجهة:

*** هاجس الخوف من الثورة:**

إن بنية الدولة وقيادتها العسكرية المملوكية وطبيعة المجتمع القبلى خاصة لا يسمحان بتأسـيس تعاقد سياسى قوامه القانـون وتبادل الخدمات. وهذا ما يعكس حالة توتر السلطان الدائمة وخـوفه من الثورات. لذلك فرضت الدولة

---

١ - ولد حموده باشا سنة (١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م) كانت أمة من أعلاج القـرج اسمها محبوبة. تزوج بهـا أبوه فى الجزائر. حـصل ملكة المشـاركة والاكـتسـاب بالتعلم والمخـالطة منذ الصغر. بويع بالولاية سنة (١١٩١هـ/ ١٧٧٧م) تدخل فى شؤون الداخلية لطرابلس سنة (١٢٠٩هـ/ ١٧٩٣م) لبث فى الحكم مدة ٣٣ سنة وقد توفى سنة (١٢٢٩هـ/ ١٨١٣م).

٢ - الإتحاف ٣/ ٣٠.

٣ - الإتحاف ٢/ ١٢٧.

٤ - الإتحاف ٣/ ١٧.

"المخزن" كشرط لمعرفة ولاء الناس وعدائهم. والمقصود بالمخزن هو الوفاء فى خدمة الملوك والانصياع لأوامرهم. وهكذا فقد اتخذ العمل السياسى صبغة تحالفية مع زعماء القبائل ومشايخ الطرق وأصحاب الزوايا وذلك لتطويق كل الخارجين وخنق كل الانتفاضات والقضاء عليها فى مهدها.

وقد تساهم الدولة بنفسها فى إثارة الفتن والأحقاد بين القبائل وذلك لاختبار سكون الدهماء وحفظا لسياسة الدولة ودفعا للخوف والإرجاف. إذن "بان بالكاشف"[١] أن الأمراء فى ورطة خوف"[٢]. فأحمد باى لما بلغه تجاسر البحرية على ضباط الفرقاطة الحسينية وقيامهم عليهم وكان ذلك فى سبيل المزاج. فإنه لم يثبت "وأمر بقتل جنود البحرية والثمانية"[٣].

كذلك قبل سفره إلى فرنسا وهو أمر لم يعهد مثله عند أهل المملكة حيث أمر كل الأمراء والمخازنية بالخروج إلى أعماليهم داخل الإيالة. وبعد خروجهم "أشاع أنه يريد السفر"[٤]. وكانت الدولة تتصدى بقوة للخارجين والمتحزبين سواء كانوا من الأدعياء كعثمان الحداد الذى استجمع الناس حوله فى جبل خمير مدعيا نفسه من أحفاد البايات وقد قتل "وطوف به فى الأسواق بدعوى الحرابة"[٥] أو كانوا ممن امتنعوا عن دفع الجباية والمغارم مثل بوارق العصيان التى دبت فى وطن الأعراض بعد أن اشترط عليهم اللزام دفع

---

١ - تعبير محلى: معناه بان بوضوح.

٢ - الإتحاف ٢/ ١١٨.

٣ - الإتحاف ٤/ ١٥٤.

٤ - الإتحاف ٤/ ١٠٥.

٥ - الإتحاف ٢/ ٢٠٠.

المحصـول على دفن الميت فكان ذلك سببـا لقـتله وسببـا لخروج أجـمد باى "لتلافى الصغير قبل أن يكبر والقليل قبل أن يكثر"[١].

*** المصادرة والجباية:**

كانت بداية الثورات ونهايتها تنتهى بمصادرة أموال الرعية ونهب أملاكها مثلما فـعل إبراهيم الشريف[٢] مع العربان. حيث أطلـق يده فى ظلم الرعية وسلب أمزالها وكان يقول: "كل معوج الرقبة لإبراهيم الشريف"[٣]. كذلك مصادرة زروق لأمـلاك الرعية بالساحـل خاصة بعد فشـل ثورة ١٨٦٤، فقد حكم يد النهب فى الأموال وتفنن فى سـبلها حتى أصبـحت "بلدان الساحل خاوية على عروشها"[٤].

فالمصادرة هى وسيلة من وسائل ردع الخـارجين والثائرين عن أمر الدولة لأن البايـات والمماليك قلمـا يظفرون برؤوس "الفـتنة" لاحتـمائهم بالجـبال والتوغل فى الفـيافى. فتكـون المصادرة خير وسـيلة لقطع دابرهم واستـأصال شافتهم. فعلى باشا مثلا لما أوقع بالهـمامة استاق لهم "ثلاثة عشر ألف بعير ووسمها كلها بوسم الدولة"[٥].

---

١ - الإتحاف ٤/ ٤٤.

٢ - إبراهيم الشـريف هـو الذى أطاح بالدولة المرادية وهو الذى قـضـى على مـراد الثـالث "بوبالـة". دامت ولايتـــه بالـبـــلاد ثلاث سنـوات (١١١٤هـ/ ١٧٠٢م - ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م).

٣ - الإتحاف ٢/ ٩٨.

٤ - الإتحاف ٥/ ٢٠٩.

٥ - الإتحاف ٢/ ١٦.

أما الجبـاية فقد أجحف فـيها البايات إلى درجـة إهلاك الحرث وإتلاف النسل وهى ضريبة مـردت الرعية على دفعها للدولة وذلك لتـغطية مصاريف الدولة وحل أزماتها. وكان عمال الدولة المماليك والمخازنية هم الذين يباركون قرارات الدولة ويعملون على جمع الجبايـة وذلك لخبرتهم بهذه الصنعة. حتى أن الذى حـصلت له مـلكة بذلك يرى أنه "لابد من قـــوة شـديدة لغـصب الناس"(١).

وفى الحقيقة مضاعفة المجابى على الرعية تعكس أزمة اقتصادية ناتجة عن ضعف المكاسب الداخـلية وسوء تدبيـر البايات إلى جانب الهـيمنة الخارجـية وتحويل البـلاد إلى سوق للترويج. لذلك ولت الدولة وجـهها شطر المجـتمع المحلى حتى تدفـع ضريبة هذه الأزمـة. لكن هيهات فـقد اسـتع الخرق على الراقع كما يقول ابن أبى الضياف.

والأدهى من ذلك أن المال المغتـصب من المجتمـع لم يستعـمله البايات لإصلاح ما يمكن إصـلاحه رفعا للضائقـة وتحسينا للمكاسب وتشجـيعا على السـعى بل سخـر فى وجـوه الترف والنـزوات السلطانية والـتأنق فى المبـانى والأشكال الظاهرة بدعـوى هوس الحضارة ومـجاراة ملوك الوقت. "ومع أن المملكة لم ينقص من أرضها فما زيد فيهـا شبر ولا حدثت فيها صناعات ولا ازدادت فيهـا فلاحة ولا نمت فيها مـتاجر لأهلها واستولى الإفـرنج على أكثر منافعها"(٢).

أما موقف الرعية فقد تراوح بين الاحتجاج والرفض والثورة.

---

١ - الإتحاف ٥/ ١٣١.

٢ - الإتحاف ٥/ ١٤٦.

- الاحتـجاج يتمـثل فى تنديد الرعية بظـلم العمال مـثل عامل الوطن القبلى الذى أساء السيرة فى اقتضـاء الجباية فخرج أهل عمله شاكين يتقـدمهم أطفالهـم من المكاتب ضاجين بقـولهم: "يارب ألطف بنا المور إلى جار علينا"[1].
- الامـتناع والرفض عن دفع الجـباية شـأن القـبائل النـائية عن المركـز والقادرة على الفرار أمام المحلة.
- المواجهة تتمثل فى الثورة وهى أرقى مظاهر التـعبير عن رفض العامة والمجتمع لسياسة البايات.

❊ ❊ ❊

١ - الإتحاف ٢/ ٢٠٩.

obeikandl.com